نظرية المعرفة عند الصوفية

الفيتوري محمد الفيتوري الطرلي

الجامعة الأسمرية الإسلامية، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة والفكر الإسلامي

البريد الإلكتروني : alalfytwry61@gmail.com

استلمت الورقة بتاريخ 2022/08/2

وقبلت بتاريخ 2022/9/12

ونشرت بتاريخ 2022/9/15

الكلمات المفتاحية: التكاليف - الصوفية – المعرفة (3-5 كلمات)

الملخص

التصوف الإسلامي هو احسان وتهذيب سلوك وتربية، وهذه أشياء لا ينتقدها إلا مفتقر للمعرفة، أما انتقاد ما اشتمل عليه من نظريات وأساليب فهو محل قبول للأخذ والرد، بل قد يكون محلا للاختلاف بين المتصوفة أنفسهم بين داعٍ ومنكر، وقد تناولت نظرية المعرفة بالبحث للوقوف على حقيقتها من أعلام التصوف ومصادره الأصيلة، فقد كان ينسب لها أنها باب دخلت منه للتصوف فكرة وحدة الوجود وغيرها من المصطلحات الفلسفية، وقد انتهجت منهجا وصفيا نقديا، طلبا للموضوعية وانصافا لهذا العلم، فكان النقد من خلال أهل هذا العلم المنتقدين لبعض الانحرافات الدخيلة على هذه النظرية.

ولقد درست خلال البحث الفرق بين المعرفة بمفهومها العام، وبين مفهومها الصوفي الخاص المعتمد على صفاء القلب لمولاه والتطهر من التعلق بالأغيار، فهي هبة ربانية لا كسبية، مع أن العلم قد يكون شرطا لحصول هذه الهبة، وهي متى حصلت كانت الأكثر يقينا ورقيا بعد الوحي، والوحي هو الحاكم عليها أهي هبة ربانية أم تلبيسات شيطانية، وبحصولها كان أمام صاحبها إما كتم أو بوح أو رمزية في التعبير عنها والكل له حجة، أما اسقاط التكاليف عن من وصل إلى اليقين بهذه المعرفة، فهذا قول مع شذوذه وندرته عند من يدعون الانتساب إلى هذا العلم، غير أنه رُد عليه من أعلام التصوف الذين لهم في الأمة لسان صدق، فقد وقفوا موقف الرافض والمنكر له، وأوجعوا بألسنتهم مذهب هؤلاء القلة، وألجموا بحججهم أفواه القائلين بها، وللغزالي في هذا موفق متميز وفهم راقٍ، مستمد من هدي النبي -عليه الصلاة والسلام- في طلب الراحة بأداء الطاعة، فاعتبر الغزالي أن الذي يسقط هو التكلُّف في أداء الطاعة لا التكاليف فتصير قرة عين له.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله – صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا.

أما بعـــــــــد :-

كان ولازال التصوف مجالا رحبا يستقطب قلوب السالكين، الذين أخلصوا دينهم لله وتخلصت قلوبهم من التعلق بالمادية والحظوظ الدنيوية، واختاروا لأنفسهم طرقا تقوم على المجاهدات الروحية والسلوكيات البدنية حتى يتم لهم التخلي عن كل رذيلة ثم التحلي بكل فضيلة، ليصل بهما الصوفي إلى هدفه ومبتغاه، وهو القرب من الله ونيل رضاه.

ولما كان السالك لهذا الطريق الموصل إلى تلك الغاية السامية، يحتاج من المعارف والعلوم، والتوفيق والفتوحات، ما يعينه وينير بصيرته، اقتضى هذا أن يكون لهم رأي في المعرفة وما يتعلق بها من الأفكار والضوابط لهذا الطريق المعرفي الخاص، فجاء البحث هنا متناولا نظرية المعرفة عند الصوفية.

من المعلوم أن المعرفة بوجه عام تختلف تبعا لاختلاف وسائلها في القوة والوضوح، كما أنها تختلف حسب تفاوت متعلقاتها في الشرف والكمال، والمعرفة بمفهومها الصوفي الخاص - كما يرى أهل هذا العلم - هي أكثر أنواع المعارف وضوحاً، وأكثرها يقيناً، وأشرفها متعلقاً، وهي معرفة خاصة بالأصفياء، فهي أرقى من أن ينالها كل إنسان بطريق الكسب والتعلم، بل هي هبة من عند الله، وهي إن لم تحصل بالذوق والتجربة لا تحصل بالتعلم .

أهمية الموضوع: كان الدافع للبحث في هذه النظرية ودراستها تحقيق الفائدة العلمية – الخاصة والعامة - من وراء بحثها، ومما زاد اهتمامي ببحثها هو أهميتها الفكرية وتعرضها لكثير من النقد الذي طال هذه النظرية،

حتى أنها (اعتبرت مما شجع التصوف الفلسفي على التطرف والغلو دون حرج، فأدخل فلاسفة التصوف في الفكر الإسلامي سموم الاصطلاحات الفلسفية، مثل: وحدة الوجود) [1].
وتنبع أهمية هذا الموضوع –عند الصوفية- من كونهم يعتبرون أن المعارف التي تحصل عن طريق هذه المعرفة، هي أبقى من أن يعتريها تغير، فهي عندهم في الدرجة الثانية بعد الوحي.
أما منهج البحث: فلقد انتهجت طريق المنهج الوصفي في عرض أفكار الصوفية وأقوالهم في المعرفة، وقد حاولت قدر استطاعتي توضيح أفكارهم، ولقد ارتكزت في بحثي على أقوال الغزالي[2] في كتابه الإحياء؛ وذلك لأنه فصَّل هذا الموضوع وبينه أكثر من أي كتاب آخر، ويشهد لقولي أن عدداً كبيراً من المؤلفات التي أوردت هذه المسألة أو استطردت بالحديث عنها، قد ارتكزت على هذا الكتاب، واعتبرته عموداً فقرياً في تناولها للموضوع، هذا فضلا عن كون الغزالي يعتبر مثالا للصوفية المعتدلة .
والحق أن الصوفية قد أوردوا أدلة عديدة على صحة طريقتهم فاكتفيت بانتقاء أوضحها دلالة، كما أنني أضفت إلي منهج الوصف، منهج النقد في مسألة إسقاط التكاليف، وما كان ذلك كذلك إلا إنصافاً للتصوف والمتصوفة، فكان نقدي للصوفية المغالين بأقوال الصوفية المنصفين المعتدلين .
أما خطة البحث : فقد قسمت البحث إلى مبحثين :
المبحث الأول تناولت فيه المعرفة عند الصوفية، وفيه أربعة مطالب : -
1. المعرفة لغة واصطلاحا .
2. الفرق بين العلم والمعرفة عند الصوفية .
3. الأمور التي تجعل القلب صالحا للمعرفة .
4. المعرفة : كيفية حدوثها، وأقسامها، والتعبير عنها .

أما المبحث الثاني فقد تناولت فيه استدلالاتهم، وبعضاً من آرائهم عن المعرفة، وفيه مطلبان:
1. شواهد الصوفية على صحة طريقتهم .
2. رأي الصوفية في إسقاط التكاليف عن العارفين .

[1] انظر : التصوف بين الغزالي وابن تيمية : عبد الفتاح سيد أحمد ، دار الوفاء ، المنصورة، ط1 (1420ه)، ص 122.
[2] الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، الملقب بحجة الإسلام ، الفقيه الشافعي ، درس في المدرسة النظامية في بغداد ، وله عدة مؤلفات في فنون مختلفة منها " الوسيط " في الفقه ، وإحياء علوم الدين ، وهو من أنفس الكتب وأجملها ، ولد سنة 450ه، وتوفي في يوم الاثنين سنة 505ه. وفيات الأعيان وأنباء الزمان : أبو العباس بن خلكان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط1 (1971م) ، ج4 ، ص 216.

المبحث الأول
المعرفة عند الصوفية

وفيه أربعة مطالب هي :

1. **المعرفة لغة واصطلاحا .**
2. **الفرق بين العلم والمعرفة عند الصوفية.**
3. **الأمور التي تجعل القلب صالحا للمعرفة.**
4. **المعرفة: كيفية حدوثها، وأقسامها، والتعبير عنها .**

1) تعريف المعرفة في اللغة والاصطلاح

أ- المعرفة في اللغة :المعرفة اسم من العرفان وهو العلم بحاسة من الحواس الخمس، يقال : فلان عارف على قومه أي مدبر أمرهم وقائم بسياستهم، ومنه أشتق اسم العراف أي المنجم والكاهن[1].

ومما ورد في هذا المعنى قول الشاعر :

أَوَ كُلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عَرِيفَهم يتوسم

أي مدبر أمرهم والقائم بسياستهم، ويقال عرفه يعرفه معرفة وعرفانا : أي علمه، ويقال بأن المعرفة والعرفان تستعمل بمعنى إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره، فهو أخص من العلم، ويضاد المعرفة الإنكار، ويقال فلان يعرف الله، ولا يقال : يعلم الله، لما كانت معرفة البشر لله تعالى هو تدبر آثاره دون إدراك ذاته، ويقال : الله يعلم كذا ولا يقال يعرف كذا، لما كانت المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوصل إليه بتفكير، وأصله من عرفته أي أصبت عرفه : أي رائحته [2].

ب- المعرفة في الاصطلاح : للمعرفة تعريفات عدة في الاصطلاح نذكر منها ما عرفها به الفراوي [3] بقوله : "المعرفة هي حياة القلب مع الله" [4] ويعرفها بعضهم بأنها: هي العلم الذي لا يقبل الشك إذا كان المعلوم ذات الله تعالى وصفاته [5] .

وقال بعض الشيوخ المعرفة معرفتان: معرفة حق، ومعرفة حقيقية، فمعرفة الحق إثبات وحدانية الله تعالى على ما أبرز من صفات، والمعرفة الحقيقية لا سبيل إليها لامتناع الصمدية وتحقيق الربوبية عن الإحاطة؛ لأن الصمد هو الذي لا تدرك حقائق نعوته وصفاته.

وقال بعضهم: المعرفة إذا وردت على السر ضاق السر على حملها [6].

وقد أورد ابن العربي [7] في رسائله عدة تعريفات منها قوله: المعرفة أن تعرف ما أنت عليه وما هو عليه .

ومنهم من قال: بأن المعرفة هي أن تعرف ما أنت عليه وتعجز عما هو عليه [8].

وبعد هذا السرد للتعريفات نرى بأن كل المعرفين للمعرفة ينظرون إلى المعرفة كل حسب زاوية رؤيته التي يراها منها، غير أنه لا تناقض بينهم؛ لأنه وإن تعددت التعريفات للمعرفة إلا أن الكل يصب في معناً واحد، وإن كان في بعض التعريفات التركيز على معنى معين مع إغفال غيره من المعاني، ولعل ذلك لأنهم يعتمدون في تعريفاتهم على تجاربهم المباشرة التي تختلف باختلافهم، فلا شك أنه عند تصور ذلك يتضح سبب التعدد والاختلاف في تعريفاتهم للمعرفة .

2) الفرق بين المعرفة والعلم عند الصوفية .

يتجه الصوفية إلى التفريق بين العلم بمعناه العام وبين المعرفة بمعناها الصوفي الخاص، ويعتبرون أن العلم مباح للجميع بوسائله العادية الاكتسابية، وعليه فهو إنساني عام، أما المعرفة والتي قد يطلق عليها (العلم اللدني) فهي مقصورة على فئة خاصة وهي هبة إلهية .

ولهذا نرى بأن الإمام الغزالي اتجه إلى التفرقة بين العلم والمعرفة، فهو يعتبر بأن العلوم التي تحصل في القلب في بعض الأحوال، تختلف في كيفية حصولها، فتارة تهجم على القلب من حيث لا يدري كأنها ألقيت فيه إلقاءً، وتارة تكتسب بطريق التعلم والاستدلال، فأما الذي يحصل بالاستدلال والتعلم فيسمى استبصاراً، أو علما ويخص به العلماء، وأما الذي يقع في القلب دونما الاستدلال عليه بدليل ولا تعلُّم ولا اجتهاد في الوصول إليه من العبد، فهذا ينقسم إلى قسمين :

قسم لا يدري كيف أنه حصل له؟ ولا من أين حصل؟ فهذا يسمى معرفة، وهو يختص بالأولياء والصالحين.

---

[1] المصباح المنير : للرفاعي ، المكتبة العلمية ، بيروت ، ج2 ، باب العين ، ص 405.

[2] تاج العروس من جواهر القاموس : محمد الحسيني المرتضى ، ج24 ، باب عرف ، ص133 .

[3] أبو عبد الله الفراوي ، ولد سنة (441ه) وتوفي سنة (530ه) . وفيات الأعيان ، أبو العباس بن خلكان ، ج4 ، ص 290

[4] الرسالة القشيرية في علم التصوف: أبي القاسم القشيري ، تحقيق: معروف زريق ، دار الخير ، ط2 (1998م)، ص317.

[5] نظرية الاتصال عند الصوفية: سارة بيت جلوي آل سعود ، دار المنار ، جدة ، ط1 (1991م) ، ص191.

[6] التعرف لمذهب أهل التصوف : محمد الكلاباذي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، الباب 60 ، ص 133،132.

[7] محي الدين أبو بكر ابن العربي ، ولد سنة (560ه) نزيل دمشق ، وتوفي سنة (638ه). طبقات الأولياء ، لابن الملقن ، ص469 .

[8] رسائل ابن العربي: محمي الدين ابن عربي ، وضع الحواشي: محمد النمري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 (2001م)، ص 77 .

وقسم يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم، وهو مشاهدة الملك المُلقي في القلب فهذا يسمى وحيا وبه يختص الأنبياء [1] .

كما أن الصوفية يرون أن هناك فروق أخرى بين العلم بمفهومه العام وبين المعرفة بمفهومها الصوفي الخاص، فالمعرفة ترتبط بالتجربة المباشرة، أما العلم فهو أكثر عموما حيث يدل على كسب المعلومات نقلا أو عقلا بالنسبة للإنسان، والمهم أن نلاحظ أن المعرفة تتطلب تجربة مباشرة بينما العلم لا يشترط التجربة[2].

والصوفية يعتبرون المعرفة - بمعناها الصوفي – لهي أرقى أنواع المعرفة وأكثرها يقينا بعد الوحي إذ الإلهام أو الكشف أو المشاهدة [3] أو العلم اللدني وهو الأشبه بالوحي إذ حين الوحي يشاهد الأنبياء جبريل حين يوحي إليهم ولكن في حال الإلهام لا يرى ملك [4] .

ويذكر الإمام الغزالي بأن هذا الاعتبار الأخير، هو السبب في إقبال بعض المتصوفة على العلوم الإلهامية الكشفية دون التعليمية منها، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأدلة، كما أنهم اعتبروا أن ذلك العلم اللدني يُكتفى به عن دراسة الفقه، بزعمهم أن النبي - ﷺ - قد تعلم ذلك دون تعلم بل بالوحي والإلهام [5] .

لكن الغزالي يرى بأن المعرفة وإن كان طريقها الكشف، إلا أن قوامها الشرع والعقل معا، لذلك نرى بأن الغزالي يشترط للمعرفة ثلاثة أمور :

1. تحصيل جميع المعارف، وأخذ الحظ الوافر منها .
2. الرياضة الصادقة، والمراقبة الصحيحة .
3. التفكير .

فإن النفس إذا تعلمت وارتضت بالعلم ثم تتفكر في معلوماتها بشروط التفكير الصحيح ينفتح عليها باب الغيب[6].

فمن ترك التعلم كان كمن ترك الحراثة وطرق الكسب رجاء العثور على كنز من الكنوز، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جدا، فلابد من تحصيل ما حصله العلماء، وفهم ما قالوه، ثم لا بأس بعد ذلك بانتظار ما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه أن ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة[7]، ولهذا ترى بأن الغزالي لم يُقدِم على سلوك طريق التصوف إلا بعد أن أتقن العلوم [8] .

3) الأمور التي تجعل القلب صالحا للمعرفة :

إن المعرفة الصوفية هبة ربانية يُجتهد لبلوغها والوصول إلى هذه المكاشفة، غير أنه على المجتهد جعل القلب صالحا لتلقي هذا النوع من المعرفة، وإزالة ما يعيق القلب ويحجبه عنها، لذا نجد ابن القيم[9] يصنف الحجب إلى أنواع ثلاثة فيقول: (المكاشفة الصحيحة: علوم يحدثها الرب سبحانه وتعالى في قلب العبد، ويطلعه بها على أمور تخفى على غيره، وقد يواليها وقد يمسكها عنه بالغفلة عنها، ويواريها عنه بالغين الذي يغشى قلبه، وهو أرق الحجب، أو بالغيم، وهو أغلظ منه، أو بالران، وهو أشدها.

فالأول: يقع للأنبياء عليهم السلام، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله أكثر من سبعين مرة"[10].

والثاني: يكون للمؤمنين. والثالث: لمن غلبت عليه الشقوة، قال الله تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [11] ، قال ابن عباس وغيره: هو الذنب بعد الذنب يغطي القلب حتى يصير كالران عليه)[12].

ولقد بين الصوفية شروطا للقلب حتى يكون مؤهلا لبلوغ درجة المعرفة والمكاشفة التي هي من لدن الله (ولا شك أن من لم يعرج عليها ولا يصدق بوجودها لا يتشوف إليها ولا يطلبها، وعلم الباطن كله مواهب وكشوفات، فمن لم يصدق به لا يناله أبدًا مادام منكراً له - فلا معرفة لمنكر- وقد قالوا : أول الطريق تصديق،

---

(1) إحياء علوم الدين : أبو حامد الغزالي ، تخريج : الحافظ العراقي ، مطبعة مصطفى الحلبي ، مصر ، 1358ه، ج 3 ، ص 17 .

(2) نظرية الاتصال عند الصوفية: ص 191.

(3) (الإلهام): هو الاطلاع على الأسرار الغيبية بعين البصيرة في عالم المثل بلا شك وشبهه اطلاع غيبية (المكاشفة): انكشاف الحجب بصفاء صفات السالك فيها . (المشاهدة) : شهود الذات بارتفاع الحجب مطلقا . اصطلاحات الصوفية ، عبد الرزاق القاشاني ، تحقيق : عاصم الكيالي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ا (2005ف) ص 135، 152.

(4) التصوف بين الغزالي وابن تيمية ، ص 121.

(5) إحياء علوم الدين ، ج 3 ، ص 18.

(6)التصوف بين الغزالي وابن تيمية ، ص118 .

(7) إحياء علوم الدين ، ج 3 ،ص 19 .

(8) التصوف بين الغزالي وابن تيمية ، ص118 .

(9) ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب بن سعد بن جريز الزرعي ثم الدمشقي، ولد (691ه)، كان مفسرا وأصوليا وفقيها، متقنا لعلم الحديث، وكان عالما عارفا بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم، توفي سنة (751ه). انظر: ذيل طبقات الحنابلة: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: عبد الرحمن بن سليما العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 1 (1425ه)، ج5 ، ص171 – 176.

(10) صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج النيسابوري ، دار الجيل ، بيروت ، ج 8 ، باب في التوبة ، رقم الحديث 6957 ، ص 72.

(11) سورة المطففين، الآية 14.

(12) مدارج السالكين : ابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط3 (1416ه)، ج 3 ، ص 211.

ووسطه توفيق، وآخره تحقيق، فمن لا تصديق له لا توفيق له، ومن لا توفيق له لا وصول له لعين التحقيق، لذا قالوا :التصديق بطريقنا ولاية، أي أنها سبب الولاية) [1].

وقد ذكر الغزالي في هذا الأمر حديثا مستفيضا، حيث جعل أمام القلب خمسة حجب تمنعه من إدراك هذه المعرفة الباطنية، وهو في حديثه عن الأمور التي تجعل القلب صالحا للمكاشفة يشبهه - أي القلب - بالمرآة، لا تنكشف فيها الصورة لخمس أمور وكذا القلب، وهي بإيجاز :

1. " قبل صقلها، وكذلك القلب لنقصانه في ذاته، كالصبي فإنه لا تنجلي له المعلومات لنقصانه.
2. لخبثها واتساخها، وكذلك القلب لكدرة المعاصي والخبث الذي تراكم على القلب من كثرة الشهوات، وهذه لا يزال أثرها إلا بالحسنات، إذ الحسنة تمحو السيئة ويزداد جلاء القلب بفعل الطاعات[2]، وقد وافقه القشيري[3] وغيره في هذا، فقد جعل القشيري الصدق مع الله في المعاملات وتنقية الأخلاق من الرذائل والآفات، شرطاً ليكون العارف صالحاً لطلب المعرفة [4].
3. كون المرآة معدولا بها عن الجهة، وكذلك القلب فهو قد يكون صافياً إلا أنه مفتقر إلى التأمل والتفكير في حضرة الربوبية والحقائق الخفية، فمثل هذا لا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه ومتأمل له.
4. لحجاب مرسل بين المرآة والصورة، وكذلك القلب فإنه قد يكون صافيا متأملا متفكراً غير أنه ليس صالحا للمعرفة، ذلك لكونه محجوباً بسبب اعتقادات تقليدية ترسخت في النفس، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق، وهذا حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين إلى المذاهب .
5. الجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة، وكذا مرآة القلب، فإن طالب المعرفة ليس يمكنه أن يحصل على العلم بالمجهول، فلابد له من العلم وتذكر هذه العلوم التي تناسب مطلوبة، حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه، فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب" [5].

وقد اشترط بعضهم أن يكون العارف متحررا من كل الأغيار، فلا يكون في قلبه سوى الله فقط دون أي شيء آخر، وقد بالغ بعضهم فأدخلوا ضمن هذه الأغيار العلم أيضا، وهذا شرط غير صحيح بل إن خلافه هو الصحيح، وهذا بشهادة أعلام التصوف [6]، ولعل هؤلاء اشترطوا ذلك بحسن نية وسلامة قصد، فأرادوا تحقيق تمام التجرد من الأغيار، ومن هؤلاء ابن العربي، حيث يرى ابن العربي أن من الشروط التي تجعل العارف صالحاً لتلقي المعرفة، هي أن يكون القلب خاليا من كل علم وناسياً لما علمه، حتى يجلس مع الله على التجرد والصفاء [7].

4) المعرفة : كيفية حدوثها، وأقسامها، والتعبير عنها :

يرى الصوفية بأنه من أراد سلوك طريق المعرفة، لابد من أن يكون صالحا لتلقي المعرفة ومستعدا لتلقي العلوم اللدنية أو المعارف الإلهامية ومتهيئًا لها، غير أنه حتى وإن اجتهد للوصول إليها إلا أنها قد لا تُدرك؛ لأنها - قبل كل شيء - هبة إلهية ومنة رحمانية، لذلك نجد كثيرا ما يتردد (على ألسنة الصوفية قولهم : أول الطريق تصديق، ووسطه توفيق، وآخره تحقيق، فمن لا تصديق له لا توفيق له، ومن لا توفيق له لا وصول له لعين التحقيق)[8].

وقد عبر الإمام الغزالي عن حدوث المعرفة فبين أن المعرفة تحدث في القلب، والقلب مثله كالمرآة تراعى فيها الصور وحقائق الأمور، وأن كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور على اللوح المحفوظ، وهذا اللوح في المثال كالمرآة تظهر فيها الصور، فلو وضع في مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة المرآة الأولى تتراءى في الثانية، إلا أن يكون بينهما حجاب فصل بين القلب واللوح المحفوظ، كاشتغال القلب بالشهوات وغيرها، فإن هبت ريح حرَّكت هذا الحجاب ورفعته تلألأ في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف، وقد يثبت ويدوم وقد لا يدوم وهو الغالب .[9].

وقد ذكر ابن العربي في رسائله كيف تحدث المعرفة بطريق التعرض لنفحات رحمة الله فقال :(اعلم بأن السبب الموصل إلى نيل المعرفة تفريغ الخاطر والقلب من كل علم ونسيان ما علم، والجلوس مع الله على الصفاء وتجريد الباطن من التعلق بالأغيار، لا تجالسه على شيء معين وليكن هجيرك في جلوسك بباطنك (الله، الله) من غير تخيل، ولا تنتظر الفتح الإلهي بواسطة هذا الجلوس بل اذكره مثل هذا الذكر لما استحقه جلاله،

---

[1] الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية: أحمد بن محمد بن عجيبة الحسيني، ضبطه: عاصم إبراهيم الكيالي، الحسيني الشاذلي الدرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 284.

[2] إحياء علوم الدين ،ج 3 ، ص 12.

[3] عبد الكريم بن هوازن القشيري ، ولد سنة (377ه) وتوفي بنيسابور سنة (465ه. طبقات الأولياء: لابن الملقن ، ص 80.

[4] الرسالة القشيرية ، ص 311.

[5] إحياء علوم الدين ،ج 3 ، ص(12، 13).

[6] انظر: إحياء علوم الدين ، ج 3 ، ص (12، 13). وقواعد التصوف وشواهد التعرف: أبي العباس أحمد زرق الفاسي، تحقيق: نزار حمادي، المركز العربي للكتاب، الشارقة، ص(25 ،26 ، 44 -55 ، 300 ،301 ، 312 ، 313).

[7] رسائل ابن العربي ، ص 386 .

[8] الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية: أحمد بن عجيبة، ص 284.

[9] إحياء علوم الدين ، ج4 ، ص 489 .

فإذا فتح الله عليك أبواب العلم فذق فإن كان بواسطة فذق ولكن لا تقف عنده واستمر على حالك حتى تعلم أن هذا العلم قد تجرد عن الواسطة فعندها يحصل المطلوب، فإذا رجعت إلى عالم الحس أدركت من أين نطقت الرسل، وتنزلت الكتب والصحف، ولم يبقى لك إلا قول ربي زدني علما) [1].

وقد ذكر القشيري، وكذلك الغزالي أيضا ما يشبه هذه الطريقة - أي طريقة طلب المعرفة بالاستغراق في الذِّكر - حيث بينوا أن من طرق طلب المعرفة هو التعرض لنفحات رحمة الله، يقول الغزالي : وذلك بأن يقبل على الله بكل الهمة، فمن كان لله كان الله له، حتى يستوي عنده وجود كل شيء وعدمه، ثم يخلو بنفسه في زاوية ويجلس ... ثم يذكر أشياء تشبه التي ذكرها ابن العربي ... ثم يقول : فعند ذلك تلمع لوامع الحق في قلبه، وقد تكون كالبرق الخاطف، وقد تثبت وقد تطول وقد تقصر [2].

ويعقب الغزالي على هذه الطريقة بصعوبتها لكثرة الشواغل من وسواس وشهوات وغيرها، كما قد تشوبها الخيالات الفاسدة التي تنشأ في النفس من عدم تهذيبها بحقائق العلوم، فقد يضيع العمر في هذه الخيالات، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه الالتباس في تلك الخيالات، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض، فكان حال هؤلاء كمن ترك طرق الكسب رجاء العثور على كنز فهو ممكن غير أنه بعيد جدا [3].

(والصوفية يقسمون المعرفة التي تحدث إلى أقسام :

* قسم يكشف عن سر الوجود ومعرفة الملك المعبود .
* قسم يكشف عن سر القدر وما يقع وسيقع من حوادث .

والقسم الأول هو أشرف أنواع المعرفة؛ ذلك لأنها متعلقة بالله سبحانه وتعالى، وليس من جهة يقينها إذ المعرفة كلها يقينية .

وإن من متعلقات المعرفة عند الصوفية القدرة على معرفة الخلائق وإن لم يسبق للعارف اللقاء بهم، كما أنها قد تتجاوز معرفة الخلائق إلى معرفة ما يدور في أنفسهم وضمائرهم، كما أن منهم من يجوِّز إطلاع من كشف بالحقائق على الغيب، وهذه المعرفة قد تأتي عن طريق الإلهام، أو الرؤيا المنامية، أو بصوت الهاتف، أو بغيرها)[4].

أما عن التعبير عن هذه المعرفة، فللصوفية فيه اتجاهات ومذاهب مختلفة :

(فهناك من قال بالبوح، وأصحاب هذا الاتجاه يستندون إلى عدة أسس منها:

1. التحدث بنعمة الله تعالى عليهم، وحجتهم في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [5].
2. البوح هو طريق التعلم، ووسيلة الإرشاد، ولا شك أن المريد محتاج إلى أن يستوعب التجربة قبل أن يخوضها.

وأصحاب هذا الاتجاه مثل: "الحلاج، والشاذلي"[6].

وهناك من قال بالستر والكتمان، ورأوا أن لهذا القول موجباته، ومنها :

- أن الأحوال والمعارف التي تصل الصوفي نتيجة المكاشفة، سر من الأسرار التي يؤتمن عليها الواصل، فإذا باح بها فإن ذلك خيانة للأمانة .
- أن عقول العامة لا يمكن أن تتسع لمثل هذا المستوى الرفيع من المعرفة. وأصحاب هذا الاتجاه مثل: "الشبلي"[7].

وبين هؤلاء وهؤلاء من يقول بالرمز وهم يكتفون بالإشارة عن العبارة، فيستخدمون لغة خاصة من الرمز لا يفهمها عنهم إلا المشاركون لهم في المنزلة والمدانون لهم فيها.

وأصحاب هذا المذهب مثل: الغزالي، والقشيري الذي كان يقول :" نِعم ما فعل القوم من الرمز حتى لا تظهر إلى من يفهمها على خلاف الصواب")[8].

والداعي إلى استعمال الرمزية في التعبير، وهو ما يمكن أن يوصف بأنه في ظاهره شكل من أشكال البوح وفي باطنه شكل من أشكال الكتمان، بدل صريح الكتمان أو وضوح العبارة، هي جملة من (الأسباب والدواعي :

1- قلة الصبر عن التعبير لقوة نفسانية لا يمكن معها السكوت .
2- قصد هداية ذي فتح لمعنى ما، رَمز له حتى يكون شاهدا له .

---

[1] رسائل ابن العربي ، ص 486 .
[2] انظر: إحياء علوم الدين ، ج4 ، ص 489 . والرسالة القشيرية، ص 311 ، 312 .
[3] إحياء علوم الدين ، ج 3 ، ص 19 .
[4] انظر: نظرية الاتصال عند الصوفية ، ص 195 - 197 . وإحياء علوم الدين ، ج 3 ، ص13.
[5] سورة الضحى، الآية 10 .
[6] (الحلاج) : الحسن بن منصور ، وكنيته أبو مغيث ، قتل ببغداد سنة (309ه). طبقات الصوفية: أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 (1419ه)، ص236. (الشاذلي) : أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي ، شيخ الطائفة الشاذلية ، توفي سنة (656ه). طبقات الأولياء ، ص 458 .
[7] أبو بكر الشبلي ، ولد سنة 247ه ، وتوفي سنة 334ه. وفيات الأعيان: لابن خلكان، ج2، ص273.
[8] نظرية الاتصال عند الصوفية ، ص 213 - 222.

3- مراعاة حق الحكمة في الوضع لأهل الفن دون غيرهم .
4- دمج كثير المعاني في قليل اللفظ؛ لتحصيله وملاحظته وإلقائه في النفوس .
5- الغيرة عليه .
6- اتقاء حاسد أو جاحد لمعانيه ومبانيه)[1].

وفي النهاية إعلم أن لا تعارض بين الشرع والمعرفة الحقيقية، فإذا تعارضا فعلم بأن المعرفة التي وصلت إليها قد وقع فيها لبس بسبب خيالات فاسدة أو تلبيس من الشيطان، فطريق المعرفة ليس محفوظ من الله.

قال أبو الحسن الشاذلي : (إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة، فتمسك بالكتاب والسنة، ودع الكشف، وقل لنفسك إن الله ضمن لي العصمة في هاتين ولم يضمنها في جانب الكشف والإلهام والمشاهدة، إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة)[2].

وقال الجنيد[3] : (من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة) [4].

[1] قواعد التصوف وشواهد التعرف ، من 297 .
[2] التصوف بين الإفراط والتفريط : عمر عبد الله كامل ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط1 (2001ف)، ص263.
[3] الجنيد : الجنيد بن محمد الخراز القواريري ، ولد في بغداد ونشأ فيها، اشتهر بصحبة خاله السري، وكذلك الحارث المحاسبي وغيرهما، توفي سنة (297ه) . طبقات الأولياء ، ص 126.
[4] المرجع نفسه ، ص 127.

المبحث الثاني
استدلالات وآراء للصوفية

تناول هذا المبحث استدلالاتهم وبعضا من آرائهم عن المعرفة و فيه مطلبان :
1. شواهد الصوفية على صحة طريقتهم.
2. رأي الصوفية في إسقاط التكاليف عن العارفين .

1) أدلة أهل التصوف على صحة طريقتهم في المعرفة :

اعلم بداية، وقبل الخوض في أدلتهم على صحة طريقتهم، أنهم يرون أن "من انكشف له شيء ولو كان هذا الشيء يسيرا، فإنه يصبح مقرا وعارفا بصحة هذا الطريق، ومن لم يدركه بنفسه قط فإنه ينبغي له أن يؤمن به، لأن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً .

ويستشهد الصوفية لهذه الطريقة بشواهد من (الشرع والتجارب والحكايات:

1. أما من الشرع : فقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [1] يرون في هذه الآية دليل أن الله سبحانه وتعالى يهدي عباده بما يقذفه في قلوبهم بسبب مواظبتهم على العبادة من غير تعلم، وهذا هو طريق المعرفة .

وقال تعالى : ﴿مَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [2] أي: يعلمه علما من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة.

وقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [3] قالوا : أي نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرجهم به من الشبهات، فلذلك نرى النبي –عليه الصلاة والسلام - يكثر في دعائه من سؤال النور، فكان يقول: "اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري نوراً ..."[4]).[5]

" كما أنه من أدلتهم قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾ [6] صحيح أن كل علم هو من لدنه، ولكن بعضها بواسطة تعليم الخلق فلا يسمى ذلك لدنيا، بل اللدني هو الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من الخارج . "[7].

كما أن من أدلتهم " قوله - ﷺ- :(العلم علمان : فعلم في القلب فذلك العلم النافع، وعلم في اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم)[8]، وسئل بعض العلماء عن علم القلب فقالوا: هو سر من أسرار الله، يقذفه الله في قلوب أحبابه، لم يُطْلِع عليه ملكا ولا بشراً .

كما أن من أدلتهم - وإن كان هذا الدليل على جزئية وليس على الطريقة بوجه عام قوله - ﷺ- :(الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة)[9] وهو أيضا انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام .

2. أما شواهد الصوفية من التجربة والحكاية، فهم يرون أن هذه الشواهد خارجة عن الحصر، وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم[10]، نذكر منها :- قول أبي بكر الصديق لعائشة رضي الله عنهما عند موته إنما هما أخوك وأختاك، وكانت زوجته حاملا فولدت له بنتا فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت [11].

2) رأي الصوفية في إسقاط التكاليف عن العارفين .

قد يربط بعض الناس بين الكشف وهو درجة القرب والوصول عند الصوفية وبين ترك التكاليف وإسقاط الشرائع بحيث يكون الواصل متى ما انكشفت له أستار الحجب سقطت عنه التكاليف الشرعية جملة وتفصيلا .

والحقيقة أن هذا الاعتقاد فيه نظر، وسنعرض هنا - بإذن الله - موقف الصوفية من هذه المسألة بشيء من الإجمال المبيّن:

---

[1] سورة العنكبوت / الآية 69.
[2] سورة الطلاق / الآية 3.
[3] سورة الأنفال / الآية 29 .
[4] صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج النيسابوري ، ج2 ، باب الدعاء في صلاة الليل ، رقم 1835 ، ص 182 .
[5] إحياء علوم الدين ، ج 3 ، ص 22 - 23.
[6] سورة الكهف / الآية 65 .
[7] انظر: نظرية الاتصال عند الصوفية ، ص 189 . وإحياء علوم الدين ، ج 3 ، ص 23 .
[8] سنن الدارمي : عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: حسين سليم الداراني، دار المغني للنشر، السعودية ، ط 1(1412ه) ، ج1 ، ص 373.
[9] صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج النيسابوري ، ج7 ، باب رؤيا المؤمن ، رقم 5971 ، ص 52.
[10] انظر: إحياء علوم الدين ، ج3، ص22 وما بعدها، فقد ذكر شواهداً من الآثار والحكاية ما فيه الكفاية عن طلب غيره.
[11] شرح معاني الآثار : أحمد الطحاوي ، تحقيق محمد النجار ، باب الرجل ينحل بعض بنيه دون بعض ، ج4 ، ص 88 .

إن الصوفية يقفون من مسألة إسقاط التكاليف مواقف مختلفة، فالقلة من مدعي التصوف تذهب إلى أن العارف الواصل تسقط عنه التكاليف، فقد بلغ درجة استحق معها إعفاءه من مشقة هذه التكاليف يقول الغزالي: (وقائل ثان : يدعي علم التصوف، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة. وقائل ثالث: يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف ... وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ، ولكنني قرأت علم الفلسفة، وأدركت حقيقة النبوة، وإن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقيدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات، فما أنا من العوام الجهال حتى أدخل في حجر التكليف، وإنما أنا من الحكماء أتبع الحكمة وأنا بصير، مستغن فيها عن التقليد)[1]، ويؤكد ذلك أيضا بقوله عنهم: (ظنوا أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل، وبعد الوصل يستغني عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعي والعبادة، وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه وتعالى عن أن يمتهنوا بالتكاليف، وإنما التكاليف على عوام الخلق)[2].

وقد روي عن بعضهم أنه "كان يأكل في نهار رمضان، ويقول أنا معتوق وأعتقني ربي.

فهؤلاء يعتبرون أنهم قد وصلوا إلى نهاية الطريق، وحينها لا حاجة إلى وسائل سلوك الطريق؛ لأنه لا سير ولا طريق بعد بلوغ النهاية.

أما ابن العربي فيحتفظ في مسألة إسقاط التكاليف، فالأمر عنده وإن كان جائزة إلا أنه يرجع إلى سر خاص بين الصوفي وربه، لا يتاح الوقوف على مداه لغيره من الناس"[3] .

وما مسألة إسقاط التكاليف عن من وصل إلى درجة المعرفة الصوفية إلا من نزغ الشيطان وشهد لذلك قصة عبد القادر الجيلاني[4](وخلاصتها : أنه بينما كان ذات يوم جالساً في محرابه يذكر الله ويتفكر ... إذ سمع هاتفا له : يا عبد القادر أبشر فقد أسقطت عنك التكاليف ... ولما أفاق إلى نفسه، أخذ يفكر في صاحب هذا النداء، وفي مدى احتمال إسقاط الله الأحكام عن أحد من عباده قبل الموت على ضوء ما يدل عليه القرآن والسنة - وكان عالماً وفقيهاً متمكناً -... فصاح الشيخ قائلا : إخسأ، فقد عرفتك أيها الملعون، فعاد إليه المنادي يقول : لولا علمك بالشريعة لأضللتك، وكم من شيخ مثلك جاهل بها أرديته في الضلال)[5].

وقد انفرد الغزالي بفهم متميزا حقا - فكان غاية في الرقي والنقاء - لمسألة إسقاط التكاليف، فهو يلاحظ ما في التكاليف من مشقة يمحَّص بها قلب المؤمن وتختبر بها قوة إيمانه، وبما أن الصوفي الواصل قد تجاوز مرحلة التمحيص فقد افتقد التكليف لديه ما يتسم به عادة من المشقة والعسر، بل لقد أصبح للقيام بالتكاليف مذاق خاص لا يشعر بحلاوته غير الصوفي، فإسقاط التكاليف عنده شعور جديد عند الصوفي، وذلك بزوال المشقة التي حلت محلها حلاوة المذاق، يقول الغزالي: (بل معنى ارتفاع التكليف من الولي، أن العبادة تصير قرّة عينه وغذاء روحه، بحيث لا يصبر عنه فلا يكون عليه كلفة فيه، وهو كالصبي يكلف حضور المكتب ويحمل على ذلك قهرا، فإذا أنس بالعلم صار ذلك ألذ الأشياء عنده ولم يصبر عنه ولم يكن فيه كُلفة ... فإذا تكليف الولي محال، والتكليف مرتفع عن الولي بهذا المعنى، لا بمعنى أنه لا يصوم ولا يصلي، ويشرب ويزني) [6].

أما جمهور الصوفية، فيقررون أن التكاليف الشرعية لا تسقط عن المكلف بأي حال حتى ولو بلغ درجة الوصل، بل إن الوقوف عند حدود الشرع، والتمسك بأحكامه، هو المقياس الذي يحكم به على صدق الصوفي الواصل مهما ظهرت عليه من كرامات[7].

وقد اعتبر الجنيد أن السارق ومرتكب المعاصي أفضل حالا ممن يقول بإسقاط التكاليف، وذلك في رده على رجل سأله عن أقوام من أهل المعرفة، أنهم يقولون: (إن ترك الحركات من باب البر والتقوى، فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإلى الله رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة، إلا أن يحال بي دونها، وإنه لأوكد في معرفتي) [8].

ويقول ذو النون المصري[9] (علامة العارف ثلاث : لا يطفئ نور معرفته نور ورع، ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم، ولا تحمله كثرة نعم الله عليه على هتك أستار محارم الله تعالى)[10].

---

[1] المنقذ من الضلال : أبو حامد محمد الغزالي، تحقيق : محمد محمد جابر، المكتبة الثقافية ، بيروت، ص61 .

[2] إحياء علوم الدين ، ج 3 ، ص 224 .

[3] نظرية الاتصال عند الصوفية ، ص 210 .

[4] عبد القادر بن ابي صالح الجيلاني ، قطب العارفين ، ولد سنة (470ه) وتوفي سنة (591ه) . طبقات الصوفية ، ص 73.

[5] التصوف بين الإفراط والتفريط ، ص 260 .

[6] طبقات الشافعية الكبرى: للسبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر، ط2 (1413ه)، ج 6 ، ص 279 .

[7] نظرية الاتصال عند الصوفية ، 210 .

[8] الرسالة القشيرية ، ص314.

[9] ذو النون بن إبراهيم المصري، قيل اسمه ثوبان ، وقيل الفيض، وقيل ذو النون لقبه، واشتهر بذلك ، ولد سنة (157ه)، وكان عالما ورعا توفي سنة (245ه). طبقات الأولياء ، ص 218.

[10] الرسالة القشيرية ، ص317.

أما احتجاج بعضهم بأن الخلق مأمورون بأداء العبادات حتى يتحقق لهم الكشف المعبر عنه باليقين في قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩ ﴾ [1].

فالرد على مثل هؤلاء بأن اليقين المقصود إنما هو الموت بدليل أن الرسول -ﷺ - بقي يعبد ربه حتى مات، ألم يكن يصلي حتى تتفطر قدماه ! ترى رسول الله - ﷺ - يعبد ربه حتى الموت وهم لا يعبدون، أبلغوا من البقين أكثر مما بلغه رسول الله – ﷺ – منه !؟ [2]

يقول الغزالي :(إن وراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها ... وإنما الناجي منها فرقة واحدة وهي السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه)[3].

ولعل خير ما يمكن أن يقال لمثل هؤلاء الذين يدعون سقوط التكاليف عنهم بحجة أنهم وصلوا هو قول الجنيد لهم، أنتم من حيث الوصول فقد وصلتم ولكن كان وصولكم إلى التي لا تبقي ولا تذر، فكان يقول (وصلوا ولكن إلى سقر) [4].

[1] سورة الحجر ، الآية 99.
[2] نظرية الاتصال عند الصوفية ، ص 313 .
[3] إحياء علوم الدين ، ج 3 ، ص 224.
[4] الرسالة القشيرية ، ص 320 .

الخاتمة

الآن - بحمد الله وتوفيقه - نأتي إلى خاتمة هذا البحث فنحاول ذكر جملة من النتائج التي انتهى إليها البحث وهي كثيرة نحاول إيجازها في التالي :

1. أن المعرفة عند الصوفية تختلف عن العلم وكذا المعرفة بمفهومها العام في كونها مخصوصة بمن صفا قلبه لله .
2. أن المعرفة - عند الصوفية - لا سبيل لبلوغها بالتعلم؛ لأنها هبة من الله، غير أن العلم قد يكون شرطاً لحصولها، كما قال الغزالي .
3. أن المعرفة عند الصوفية هي أرقى أنواع المعارف وأكثرها يقينا بعد الوحي .
4. لا بد للعارف أن يكون متخليا عن الرذائل متحليا بفعل الخيرات، غير غارق في الشهوات والشواغل ورعا خلوقا متأملا متفكراً في حقائق الأمور .
5. أن أرقى أنواع المعارف التي تحصل بالمعرفة هي معرفة الملك المعبود الله سبحانه وتعالى.
6. أن المنصفين من المتصوفة يرون أنه لو تعارضت المعرفة مع الكتاب والسنة يجب التمسك بالوحيين .
7. أن للصوفية في مسألة التعبير عن المعرفة مذاهب هي: البوح، والستر، والرمزية في التعبير .
8. أن للصوفية أدلة كثيرة يستدلون بها على صحة طريقتهم في المعرفة وأنها حقيقة موجودة ومثبتة بالشرع.
9. يصطنع الصوفية منهجاً ذوقياً خاصاً بهم في المعرفة، ليس من السهل إخضاعه للدراسة العلمية، فهو منهج خاص بأصحابه قاصر عليهم، يقوم على التجربة والإدراكات الخاصة المباشرة ، ولا يمكن اخضاعه للملاحظة الخارجية .
10. أن القلة من مدعي التصوف هم الذين قالوا بإسقاط التكاليف عن العارفين وأنها للعوام دون الخواص، أما جمهور المتصوفة وأعلامهم الذين لهم في الأمة لسان صدق، فقد وقفوا حيال هذه القضية موقف الرافض والمنكر لها، بل لقد أوجعوا بألسنتهم مذهب هؤلاء القلة، وألجموا بحججهم أفواه القائلين بها .

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم - برواية حفص - .

1. إحياء علوم الدين : أبو حامد الغزالي ، تخريج : الحافظ العراقي ، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، مصر، ط 3 (1358ه).
2. اصطلاحات الصوفية : عبد الرازق القاشاني ، تحقيق : عاصم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (2005ف).
3. تاج العروس من جواهر القاموس : محمد بن محمد الحسيني أبو الفيض، الملقب بالمرتضى، دار الهداية (د:ت).
4. التصوف بين الإفراط والتفريط : عمر عبد الله كامل ، دار ابن حزم، بيروت، ط1 (2001م) .
5. التصوف بين الغزالي وابن تيمية : عبد الفتاح سيد أحمد ، دار الوفاء، المنصورة، ط1 (2000م).
6. التعرف لمذهب أهل التصوف: محمد الكلاباذي ، دار الكتب العلمية، بيروت (د:ت).
7. ذيل طبقات الحنابلة: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: عبد الرحمن بن سليما العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 1 (1425ه).
8. الرسالة القشيرية في علم التصوف : أبي القاسم القشيري ، تحقيق : معروف زريق ، دار الخير، ط1 (1995م) .
9. رسائل ابن العربي : محي الدين بن العربي ، وضع الحواشي : محمد النمري ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1 (2001م) .
10. سنن الدارمي . عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي، تحقيق: حسين سليم الداراني، دار المغني للنشر، السعودية ، ط 1(1412ه) .
11. شرح معاني الآثار : أحمد بن محمد الطحاوي ، تحقيق : محمد النجار ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 .
12. صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج النيسابوري ، تحقيق : محمد عبد الباقي ، دار الجيل، بيروت (د:ت) .
13. طبقات الأولياء : ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بت علي الشافعي، تحقيق: نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط 2 (1415ه).
14. طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي ، عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر ، ط2 (1413ه)
15. طبقات الصوفية : أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 (1419ه).
16. الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية: أحمد بن محمد بن عجيبة الحسيني، ضبطه: عاصم إبراهيم الكيالي، الحسيني الشاذلي الدرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت (د: ت).
17. قواعد التصوف وشواهد التعرف: أبو العباس أحمد زرق الفاسي، تحقيق: نزار حمادي، المركز العربي للكتاب ، الشارقة (د:ت).
18. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن جريز الزرعي "ابن قيم الجوزية"، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط3 (1416ه).
19. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي : محمد المقري ، المكتبة العلمية، بيروت (د: ت).
20. المنقذ من الضلال: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، تحقيق : محمد محمد جابر، المكتبة الثقافية ، بيروت(د: ت).
21. نظرية الاتصال عند الصوفية : سارة بنت جلوي آل سعود دار المنارة، جدة ، ط1 (1991م) .
22. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : أبو العباس بن خلكان، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر، بيروت، ط1 (1971م) .